٣ ـ حجة تأريخيـــة

للدكتـــور جواد علي

وبعد سقوط القدس على أيدي البابليين عام ٥٨٦ قبل الميلاد سبى « نبوخذ نصر » العبرانيين وأخذهم معه إلى العراق إلى أرض بابل وتعرف هذه الحادثة في التأريخ العبراني باسم «السبي» وقد استولى « نبوخذ نصر » أربع مرات على القدس ، المرة الأولى في أيام الملك « يهوياقيم » سنة ٦٠٢ قبل الميلاد[١] وكان هذا الملك ملك « يهوذا » وهو ابن « يوشيا » وأخو «يهوآحاز» الذي خلفه في الملك وكان اسمه « الياقيم » فغيره فرعون « نخو » إلى يهوياقيم عند ما أجلسه على الكرسي[٢] وكان تحت الجزية لفرعون أربع سنين[٣] .

ثم سارت عليه جيوش ملك بابل نبوخذ نصر فاستعبده ثلاث سنين « ثم عاد فتمرد عليه فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة الموآبيين وغزاة بني عمون وأرسلهم على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبيده الأنبياء[٤] .

ثم ما لبث أن أخذه بوخذ نصر وقيده بسلاسل من نحاس ليرسله إلى بابل[٥] ثم تولى ابنه « يهوياكين » مكانه وفي أيامه تقدمت جيوش « نبوخذ نصر » للمرة الثالثة ودخلت القدس وأخذ الملك وأمه وعبيده وخصيانه وأكثر اليهود أسرى إلى بابل ومعه ما كان عنده من خزائن وما كان في الهيكل من أموال وقد فسرت التوراة ذلك لأنه عمل الشر وعصى أو أمر ربه وسار على خطة أبيه[٦] وعين نبوخذ نصر « متنيا » عم « يهوياكين » بدلا منه وسماه « صدقيا »[١] .

وفي أيام هذا الملك كذلك تقدم نبوخذ نصر هو وجيشه وحاصروا القدس ثم قبضوا على الملك وأخذوه أسيراً إلى بابل وقيدوه بسلسلتين[٢] ثم أحرقت القدس والهيكل في السنة التاسعة عشر من حكم « نبوخذ نصر » وأخذ ما كان قد تبقى أسرى إلى بابل .

وعين البابليون « جدليا بن اخيقام بن شافان » على من تبقى من اليهود وقد جاء هذا الملك نداءاً إلى البقية الباقية من اليهود وناشدهم فيه بوجوب الإخلاص لملك الكلدانيين وامتثال أمره ، ولما قتل خافه كل من في المملكة فهرب كل اليهود إلى مصر حيث فضلوا البقاء هناك[٣] .

ولما قضى الفرس على مملكة البابليين دخل اليهود في حكمهم وأصبحوا لهم أتباعاً . وغدت فلسطين جزءاً من مملكتهم والواقع وكما تحدثنا التوراة أن العبرانيين كانوا ضد أي نوع من أنواع الحكم وأنهم لم يرتضوا أن يكونوا لهم مملكة لأن صفة البداوة كانت هي الصفة الغالبة عليهم ، وأنهم حتى في أيام مملكة شاؤول وداود وسليمان وهي المملكة التي يتغنى بها الصهيونيون لم يكونوا ينظرون إليها نظرة ارتياح وأن عهدهم لم يكن يخلو من اضطراب وثورات ولذلك كانوا عرضة للخضوع إلى الحكم الأجنبي .

ولذلك لم يكن ملوك إسرائيل أو يهوذا في الحقيقة سوى رؤساء قبائل أو أمراء مقاطعتين صغيرتين تابعتين لحكم الأجانب فحكمهم المصريون وأصبح ملوك المملكتين الصغيرتين «مملكة إسرائيل » و « مملكة يهوذا » يعينون تعييناً حتى أنهم كانوا يتركون أسماءهم ويتناولون أسماءاً جديدة يتذوقها عليهم فراعنة مصر . ثم ملوك الكلدانيين فيما بعد وبعد انقراض دولتهم بسقوط « القدس » أصبحوا تحت حكم الدول الأجنبية تماماً . ولم يجد المفكرون من ذلك غضاضة كما نقرأ في الكتب العبرانية .

ومما يجدر ذكره هو أن العبرانيين لم يكونوا في يوم من الأيام راضين عن ملوكهم وإذا قرأنا التوراة نرى أن الملوك كانوا عرضة لنقمة ورؤساء الشعب والكتاب البارزين وأن الأنبياء كانوا

(١) قاموس الكتاب المقدس ج ٢ ص ٤١٢ .
(٢) الملوك الثاني إصحاح ٢٣ آية ٣٣ وما بعد .
(٣) الملوك الثاني إصحاح ٢٣ آية ٣٥ .
(٤) الملوك الثاني إصحاح ٢٤ آية ٣ وما بعد وأيام الثاني إصحاح ٣٦ آية ٨ وأرمس ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٦ .
(٥) أيام الثاني سفر ٣٦ آية ٦ وما سفر أول آية ٢ .
(٦) الملوك الثاني سفر ٢٤ آية ٧ وما بعد . اد سفر ٢٢ آية ٢٤ وما بعـــد .

(١) مل سفر ٢٥ آية ٧ .
(٢) مل سفر ٢٥ آية ٧ .
(٣) الملوك الثاني سفر ٢٥ آية ٢٢ وما بعد .

يتنبأون دائماً بحلول غضب الله على هؤلاء الملوك ، ولم يظهروا كراهية للملوك الفاتحين وهذا ما يفند رأى الصهيونية فى الدولة اليهودية القديمة .

ويلاحظ أيضاً أن العبرانيين القدامى قد استعانوا بالعرب وبثيرهم فى الدفاع عن أرض فلسطين فلما حاصر الملك «سنحريب» مدينة القدس فى أيام « حزقيا » «Hezekiah» لم يتمكن اليهود من حماية أنفسهم تجاه الأشوريين فاستعانوا بالعرب وطلبوا منهم المساعدة لخلاص القدس وقد سجل سنحريب فى أخبار حملته لسنة ٧٠١ قبل الميلاد . وكان اسم الأمير العربى الذى لبى نداء الوطن فدافع عن اليهود وقاوم الأشوريين مقاومة عنيفة أزعجت الملك « سنحريب » هو الملك العربى « مصترى » وملك آخر عربى كذلك هو ملك مقاطعة «ملوخا» وبفضل هذه المساعدة الثمينة تمكن العبرانيين من الوقوف أمام الأشوريين .

وقد دافع العرب مراراً كثيرة عن أرض فلسطين فى أيام الأشوريين والبابليين واليونان والرومان وقد تكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة ومما يذكر هو أن اليهود كانوا بالنظر إلى عدم استطاعتهم الوقوف أمام الأجانب قد اضطروا إلى الاتفاق مع الأمارات العربية لاستئجار جيوش عربية لتتولى الدفاع عما تبقى من الأراضى فى أيدى العبرانيين . ولم يبق بالطبع بعد السبى فى فلسطين جاليات كبيرة من اليهود ، بل أصبح اليهود أقلية خاضعة لحكم الأكثرية تسكن فى أماكن معينة تحت حماية الفرس فاليونان فالرومان ثم البيزنطيين .

ولما احتل البابليون فى عهد ملكهم نبوخذ نصر القدس كان العرب فى ذلك العهد يمتلكون أكثر أراضى فلسطين مثل أرض موآب وأدوم وفلسطين الجنوبية وكانت عزعة العبرانيين خائرة والنبى « أرميا » يحذر الناس من المقاومة ويطلب منهم الاستسلام[1] وكانت نتيجة ذلك تخريب بيت القدس والهيكل وأخذ اليهود أسرى إلى بابل ، ومنذ ذلك العهد فقد اليهود عملياً كل كيان لهم فى فلسطين .

أما العرب فقد دافعوا دفاعاً مجيداً أزعج نبوخذ نصر وجعله يقرر الزحف على البادية والحجاز بإشارة من أرميا وكانت المعارك شديدة بين الطرفين .

وقد تولى العرب منذ هذا العهد حتى الآن أمر الدفاع عن أرض فلسطين فكافحوا الحكم الرومانى وحاربوا البيزنطيين ولما قامت جموع العرب فى الحجاز تحت راية الإسلام تحرر البلاد العربية اشتركت القبائل العربية وأكثرها من كلب ولخم وجذام ومن استعرب من سكان فلسطين مع المسلمين فى مقاتلة البيزنطيين إخوانهم فى الدين ، لأنهم كانوا يشعرون بشعور قوى وبشعور الرابطة التى كانت تربطهم بشبه جزيرة العرب وتقدمت الجيوش الإسلامية فى أراضى سورية وتمكنت من طرد الروم[1] . وفى ذلك دليل كاف فى دحض حجج الصهيونيين.

وقد كان المسلمون والنصارى سكنة فلسطين يحاربون سوية جيوش الصليبيين الذين حاولوا باسم الدين احتلال فلسطين ولم يشترك أى يهودى فى مقاومة هؤلاء الغزاة وقد اشترك العرب مسلمون ونصارى فى مكافحة العثمانيين وتحرير فلسطين من حكمهم وفى النهضة العربية فأى حجة تاريخية يتذرع بها الصهيونيون إذاً فى حقهم التاريخى القديم فى فلسطين وهم لم يقاتلوا فى سبيل الأرض المقدسة ولم يحاولوا الوقوف أمام الأشوريين والبابليين والرومان عند ما كانوا يدخلون القدس ويخربون الهيكل وبيت داود .

وقد ادعى الصهيونيون بأن العبرانيين كانوا يحنون دائماً إلى العودة إلى « أرض إسرائيل » وأنهم ما فتئوا يتذكرون أرض الأجداد والآباء وأنهم يريدون إحياء ثقافتهم فى تلك الأرض الموعودة ولكن التوراة والتواريخ تكذب أقوالهم هذه أيضاً ، فإن العبرانيين الذين كان البابليون قد أخذوهم أسرى إلى بابل ثم سمح الفرس لهم بالعودة إلى أرض فلسطين بعد انقراض حكومة بابل ، فى أيام « كورش » فضلوا الإقامة فى أرض العراق على الذهاب إلى «أرض إسرائيل» ولم يلبّ نداء زعماء اليهود وأنبيائهم غير القليل ، لأنهم وجدوا أنفسهم فى أرض طيبة وفى موطن ملائم وقد بقوا فى العراق حتى الآن[2] وقد تولى بعضهم مناصب

(١) أرميا سفر ٢٧ آية ٣ فما بعد و ٢٥ آية ٩ فما بعد و ٣٢ آية ١ فما بعد .

(١) راجع كتب الفتوحات الإسلامية والجزء الثانى من كتاب « دراسات إسلامية » للمستشرق « بيكر » فى بحث فلسطين .

(٢) Nisi Dominus P. 15.

عالية فى الحكومة ، كما أن اليهود الذين هاجروا إلى مصر فراراً من حكم نبوخذ نصر فضلوا البقاء فى مصر على الذهاب إلى فلسطين وفى ذلك دليل على عدم صحة أقوال الصهاينة فى وجود الحس السياسى والوطن القومى عند العبرانيين .

وأما النداء الذى وجهه الملك « كورش » إلى رؤساء إسرائيل والنداء الذى وجهه الأنبياء فإنه لم يكن ذا طابع سياسى بل كان يحمل الطابع الدينى المعهود فاليهود الذين ذهبوا إلى القدس لبناء « الهيكل » والذين ساعدهم « كورش » بتقديم كل المساعدات اللازمة والذى أمر بإعادة ما كان قد أخذه « نبوخذ نصر » من ذهب وفضة من خزائن الهيكل لم يحاولوا تكوين مملكة سياسية بل ذهبوا لبناء « بيت الرب إله إسرائيل »[1] ولذلك كانت الحكومة التى كونها العبرانيون فى القدس حكومة دينية تحت حكم الفرس ومما يذكر أن « عزرا » الذى فوضه الملك « لرتحشتا » أمر قيادة رجال السبى وإعادة بناء الهيكل اتخذ كل وسائل القوة لإجبار اليهود على العمل بشرائع الرب وعلى العبادة والتوبة[2] وقد كان من نتيجة ذلك امتناق جماعة من الفلسطينيين ديانة العبرانيين .

ومع ذلك فإن الأرض التى نزل بها اليهود بعد السبى كانت صغيرة جداً أصغر من أرض « مملكة يهوذا » الصغيرة ذاتها مركزها القدس وتمتد فى الشمال إلى حدود « الرملة » وإلى « حبرون » فى الجنوب . وإلى حدود الأردن فى الشرق والسهول فى الغرب[3] .

وكانت منطقة « السامرة » التى لا تبعد إلا قليلا عن مدينة « نابلس » مأهولة بسكان من العراق كان الأشوريون قد نقلوهم إلى هذا المكان ومن السامريين الذين لم يعترفوا بزعامة رجال الكهنوت فى القدس واختلفوا عنهم . ثم أصبحوا من أشد الناس خصومة لهم ، فقاوموهم وحاربوهم مع أنهم من أصل عبرانى وهذا ما يدل على أن اليهود لم يكونوا على رأى واحد حتى فى إحياء الهيكل وإعادة الدولة اليهودية بشكل جديد سماه « السير لويد جورج » والتقرير الذى وضعته اللجنة الملكية التى أرسلت فى عام ١٩٣٦ للتحقيق فى حوادث فلسطين « بأول وطن قومى للهود » « A firit Jewish national Home »[1] .

ومما يذكر أن اليهود الذين عادوا من السبى ما كادوا يشرعون ببناء السور والهيكل ويحصنون القدس حتى ثار سكان فلسطين عليهم وهم الأكثرية فأعلنوا الحرب واشترك فى ذلك «سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون»[2] وجشم العربى وبقية شعوب فلسطين[3] .

بنى السور وتحصن العبرانيون فى القدس وتكون مجتمع يهودى صغير فى هذه البقعة بجهود « عزرا » و« نحميا » وقد أمر « هذان الزعيمان بأن تكون القدس مستعمرة يهودية بكل معنى الكلمة تتكلم اللغة العبرية وتحترم « الشباث » « السبت » وتحتفظ بقوانين العنصرية فأمر العبرانيين الذين تزوجوا بزوجات أجنبيات من الوطنيات بطلاقهن على الطريقة التى اتبعت فيما بعد وبعد ألفى سنة فى قوانين « نورنبرك »[4] .

لم يستطع هذا « الوطن القومى » الذى خلقه « عزرا » و « نحميا » ولم تتمكن القوانين الصارمة التى فرضاها على العبرانيين من خلق ذلك الوطن فظل صوت اليهود خافتاً لم يرتفع فى فلسطين على الرغم من المساعدات القيمة التى قدمها لهم « ملوك الفرس » الذين تجاهلوا رغبات الأكثرية من الوطنيين ولم يبذل العبرانيون أنفسهم لخلق ذلك الوطن لأنهم لم يفكروا تفكيراً سياسياً بل كانت كل جهودهم متوجهة نحو الاحتفاظ بديانة إله إسرائيل ، ماخلا فترات قام بها بعض الزعماء بالدعاية إلى العنصرية لم تلاق غير رواج مؤقت .

جواد علي

(١) راجع أسفار عزرا .
(٢) عزرا إصحاح ٧ آية ١٢ فما بعد .
(٣) Nisi Dominus. P, 15

(١) Mr Slod George, Quoted in the Royal Commission Repot «1939» P. 24. Nisi Dommiminus, P, 16.
(٢) نحميا إصحاح ٤ آية ٧ فما بعد .
(٣) نحميا إصحاح ٦ آية ١ فما بعد .
(٤) Nini Dominus. P. 14.

ظهر حديثا كتاب
أحمـــد عرابى